التاريخ الراديكاليّ(*)

المؤلف: هاورد زِن

ترجمة: هيثم فرحت(**)

إنَّ للكتابة التاريخية تأثيراً ما علينا دوماً، حيث يُمكنها تكريس سلبيّتنا ويمكنها تنشيطنا. على أي حال، لا يستطيع المؤرخ اختيار البقاء محايداً، فهو يكتب في قطار متحرّك. أحياناً، قد يُغيّر ما يرويه سيرُ حياةِ شخص ما. سمعتُ قسّاً كاثوليكياً في أيار 1968 ـ أثناء محاكمته في ميلووكي (Milwaukee) لحرقه سجلات هيئة التخطيط ـ يشرح (إنني أُعيد السبك هنا) كيف أقدم على ذلك العمل:

تلقيتُ تدريبي في روما، وكنت محافظاً للغاية؛ إذ لم أخالف القانون في معهد اللاهوت أبداً. ثم طالعت كتاباً لغوردن زان (Gordan Zahn) بعنوان «الكاثوليكيون الألمان وحروب هتلر، German Catholics and Hitler's Wars». بيّن الكتاب ممارسة الكنيسة لنشاطاتها العادية تماماً كما مارس هتلر نشاطاته العادية، وبيّن حضور رجال هتلر للقدّاس وخروجهم لمحاصرة اليهود. إن ذلك الكتاب غيَّر حياتي، فلقد قرّرت أنه لا يجوز للكنيسة أبداً التصرف من جديد كما فعلت في الماضي، وينطبق هذا الأمر عليَّ.

هذا الأمر جليّ للغاية. في العادة، عندما يتّخذ الناس اتجاهات جديدة، تكون الأسباب معقّدة ودقيقة لدرجة استحالة تعقّبها. بالرغم من ذلك، نحن جميعاً مدركون بدرجةٍ ما كيف غيَّرت الأمور التي طالعناها أو سمعناها نظرتنا إلى العالم، أو كيف ينبغي علينا التصرّف. نعرف أن هنالك العديد من الناس الذين لم يختبروا الشر بأنفسهم، لكنهم أصبحوا مقتنعين بوجوده وأن عليهم معارضته. إن ما يجعلنا إنسانيين هو قدرتنا

(*) إسم المؤلف والعنوان الرئيسي للكتاب باللغة الإنكليزية:
Zinn, H. (1990): **The Politics of History.** 2nd edition. Urbana & Chicago: The University of Illinois Press.

(**) مدرّس في اللسانيات الإنكليزية ـ الجمهورية العربية السورية، مقيم اليوم في أوستراليا.

بمعونة العقل على تجاوز إمكاناتنا الحسية مباشرةً، والشعور إلى حدٍّ ما بما يشعر به الآخرون كليّةً والعمل وفقاً لهذه المشاعر.

لذلك أنطلق من فكرة كتابة التاريخ بطريقةٍ تنشر الأحاسيس الإنسانية، ليس من هذا الكتاب إلى كتب أخرى فحسب، بل إلى النزاع الدائر حول كيفية عيش الناس وفي ما إذا كان سيعيشون.

أُحثّ على الكتابة التاريخية المُفعمة بالقِيَم. بالنسبة لأولئك الذين لا يزالون يتمرّدون على هذا الأمر ـ بالرغم من حجّتي أن هذا الأمر لا يُقرّر الأجوبة بل مجرَّد الأسئلة، ومن مناشدتي بأن العمل الجمالي المُنجز لغرض المتعة يجب أن تكون له مكانته، ومن إصراري أن عملنا مُفعم بالقِيَم شئنا أم أبينا ـ دعوني أُلفت الانتباه إلى مجال واحد من التربية الأميركية التي لاقت فكرتي فيه استحساناً. إنني أتحدث عن «الدراسات المتعلقة بالسود» والتي ـ بشروعها عام 1969 ـ تمَّ تبنّيها بسرعة فائقة في جامعات الأمة.

لا تتظاهر البرامج المتزايدة المتعلقة بالسود بتقديم موضوع آخر للبحث العلمي فحسب، بل الغاية المحددة لهذه البرامج التأثير على وعي السود والبيض في هذا البلد للتقليل عند كلا الجماعتين من شأن الاعتقاد الأميركي السائد بعقدة النقص عند السود.

أقترح أنه يجب اقتران هذه المحاولة المقصودة لتعزيز المساواة العرقية بجهود مماثلة من أجل المساواة الطبقية والوطنية. كما هو الحال بالنسبة لبرامج الدراسات المتعلقة بالسود، قد يحدث هذا الأمر ليس عن طريق القبول التدريجي للحجج المناسِبة بل عن طريق أزمة خطيرة للغاية تتطلب تغيرات سريعة في المواقف. إذن، قد لا تُحدِث العِظَة الثقافية تركيزاً جديداً في الكتابة التاريخية، لكن يُمكنها دعمها وتسهيلها.

أيّ وعي يمكنه أن يحرّك الناس باتجاهات إنسانية، وكيف يمكن لكتابة تاريخية ما خلق مثل هذا الوعي ومثل هذه الحركة؟ يمكنني التفكير بخمس طرق يكون التاريخ مفيداً فيها. إن هذا الأمر مجرَّد بداية أوّليّة ولا أودّ وضع صِيغ هنا. ستكون هنالك أحداث ماضية مفيدة ومدوّنة ومع هذا لا تنسجم مع أصناف تمَّ تصورها مقدماً. أودّ فقط زيادة مساحة التركيز بالنسبة لي وللآخرين الذين يُفضّلون أن يقوم الطموح الإنساني لا العُرف المهني بتوجيه كتابتهم.

1 . يمكننا تقوية وتوسيع وصقل إدراكنا لفداحة الأمور بالنسبة لضحايا العالم.

يصبح هذا الأمر عملاً خيِّراً ضعيفاً طالما أننا قد نكون جميعاً، بغض النظر عن العرق والجغرافيا والطبقة الاجتماعية، ضحايا في كوكب مُشعّ ومتوهّج. لكنَّ الزمن وضعف خيالنا يفصلاننا عن معاناتنا عينها، تماماً كما يتمّ فصل اضطهادنا للآخرين

عن أنفسنا لأن معظمنا بيض مرفّهون وضمن جدران بلد متروس بالسلاح لدرجة أنه من المحتمل جداً أن يكون معتدياً أكثر منه ضحية.

قد يحاول التاريخ التغلّب على هذين النوعين من الفصل، ويمكن للتعاقب المثير لحدث تاريخي ماضٍ ما أن يكون له تأثير أكبر علينا من خطبة منطقية هادئة عن الاحتمالات الخطيرة للنزعات الراهنة ـ لولا سبب واحد هو أننا نعرف نهاية تلك القصة. بالطبع، قد تعترينا قشعريرة عند التفكير بحرب نووية، لكنه يبقى تفكيراً لا يُمكننا إرغام أنفسنا على قبول احتمالاته المُرعبة. إن هذا التفكير نذير يحتاج، من أجل التأثير الكلّي، إلى الدعم عن طريق قصة أخرى خاتمتها معروفة. بالتأكيد، يزداد قلقنا حيال انتشار القنابل الهيدروجينية في هذا العصر النووي عندما نُطالع وصف باربرا توتشمَن (Barbara Tuchman) لحلول الحرب العالمية الأولى:[1]

طالت الحرب كلّ الحدود. وفجأةً نتيجة للهلع، كافحت الحكومات بطرق ملتوية لتفاديها، لكن دون جدوى. كان العملاء على الحدود يصوّرون كل دوريّة من سلاح الفرسان على أنها عملية انتشار الجند لدحر مدفع التعبئة، وكان ضباط الأركان العامة ـ وبتأثير البرامج الزمنية القاسية ـ يضربون الطاولة بعنف من أجل إشارة التحرك خشية أن يكسب خصومهم الأفضلية. ولأنهم مروّعون عند شفير الحرب، حاول مسؤولو الدولة الذين سيكونون مسؤولين رئيسيين عن مصير البلد التراجع، لكن قوة دفع الخطط العسكرية جرّتهم إلى الأمام.

ها نحن أنفسنا في زمنٍ آخر بالطبع، لكن بالتأكيد نحن أنفسنا.

من الأسهل تجاوز أنواع أخرى من الانفصال عن الناس المحرومين والمسلوبين في العالم ـ أي السود والفقراء والسجناء ـ عبر الزمان أكثر منه عبر المكان، ومن هنا تنجم الذاكرة التاريخية. إن كلاً من السيرتَين الذاتيّتين لمالكم إكس (Malcolm X.) وفريدرك دغلاس (Fredrick Douglass) حَدّثان ماضيان أحدهما أكثر حداثة من الآخر. كلاهما يعارض قبولنا للأمر، وكذلك تفعل الصور المعروضة على شاشة التلفاز لسود يحرقون أبنية في المناطق الفقيرة (ghetto) اليوم، لكن تؤدي السِّير الذاتية أمراً محدداً ـ أي تسمح لنا شخصياً بالنظر عن كثب وبعناية إلى ماوراء الصور المجرّدة لأولئك السود على الشاشة. إن هذه السِّير تغزو بيوتنا بشكل لم يقم به السود في الغَيت بعد، كما أنها تغزو عقولنا التي نُقسّيها ضد متطلبات الوقت الراهن. تُطلعنا هذه السِّير قليلاً على ماهية كونك أسود بطريقة لا يمكن لمجمل الصيغ الليبرالية المبتذلة عن الزنجي الأسود أن تضاهيها أبداً. لهذا تُصرّ هذه السير على أنه يجب أن نُحدث تغييراً وتُفسِّر كيف يقوم السود بذلك، فهي تُحضِّرنا للاستجابة للتغيير، إن لم يكن لإحداث تغيير.

لقد انتهت العبودية، لكنّ انحلالها يتّخذ الآن أشكالاً أخرى؛ حيث يكمن في صميمها المعتقد البغيض جداً بأن الشخص الأسود ليس كائناً بشرياً تماماً. إنّ تذكُّر ماهية

العبودية والعبيد يساهم في محاربة ذلك المعتقد. فلنتناول الرسالة التي كتبها فريدرك دَغلاس عام 1848 لسيِّده السابق لمناسبة الذكرى السنوية العاشرة لفراره إلى الحرية[2]:

لقد اخترتُ هذا اليوم لأخاطبكَ لأنّه يصادف الذكرى السنوية لانعتاقي... فمنذ عشر سنوات خلت فقط، شَهِد هذا الصباح الجميل من أيلول وشمسه الساطعة عبداً ـ عبداً فقيراً منحطّاً ـ يرتجف من وقع صوتك ويندب كونه رجلاً...

عندما كنتُ ولداً عمره ست سنوات، تشرّبتُ التصميم على الهرب. من ناحيتي، كان الجهد الذهنيّ الأول يكمن في محاولة حلّ اللغز: أي، لماذا أنا عبد؟... عندما شاهدتُ سائق العبيد يجلد إمرأة عبدة... وسمعتُ صرخاتها المثيرة للشفقة، ابتعدتُ إلى زاوية السّور، حيث بكيتُ وفكّرتُ ملياً باللغز... قرّرتُ أنني ساهرب يوماً ما.

لماذا نحتاج إلى العودة إلى الماضي وتناول أيام العبودية؟ ألم تكن تجربة مالكم إكس في عصرنا هذا كافية؟ أرى قيمتين في هذه العودة. يكمن أحد الأسباب في أننا لا نكون على اتمّ الحيطة عند تعاملنا مع الماضي لأننا نبدأ التفكير بنهايته وأن ليس هنالك شيء نخافه باستيعابنا له كليّةً، فنكتشف أننا مخطئون لأن بداهة الماضي تصعقنا وتُؤثّر علينا قبل معرفتنا بها. وعندما نُدرك هذا الأمر، يكون قد فات الآوان ـ أي تمّ تحريكنا. يكمن السبب الآخر في أن الزمن يضيف عمقاً وقوةً لمشكلة قد تبدو عابرة من ناحية أخرى وعُرضة للإهمال. إن معرفة تلك الاستمرارية الطويلة عبر القرون للانحلال الذي تفشّى في كل من فريدرك دغلاس ومالكم إكس (اللذَين امتدّت بين حياتهما حياة دووبوا W.E.B. DouBois المدونة في **The Souls of Black Folk and Dusk of Dawn**) تعني الكشف عن الفترة الطويلة المغيظة لمحنة السود في أميركا البيضاء. على الأقل، يجعلنا هذا الأمر نفهم أن ما يجول في خاطر السود هذه الأيام على أنه نفاد صبر، وأن ما يُطلِعنا عليه التاريخ مجرد قدرة على التحمّل أكثر مما ينبغي.

هل يمكن للتاريخ أيضاً أن يصقل إدراكنا للفقر الذي تحجبه عن النظر أوراق نباتات الضواحي؟ يُحجَب الفقراء عن النظر، شأنهم في ذلك شأن السود، في مجتمع مبهور ببريق رفاهيته. بالطبع، يجب تذكيرنا بقوة أن الفقراء موجودون، تماماً كما كنا في الولايات المتحدة في الستينات عندما تمّ صقل أحاسيسنا عن طريق الثورة من أجل الحقوق المدنية وتسامحنا مع حكومة أنهكتها حرب فييتنام. في غضون ذلك، صعقتنا كُتب على شاكلة **The Other America** لمايكل هارينغتن (Michael Harrington)؛ إذ زوّدتنا دون العودة إلى الماضي بمنظارٍ للأفق يُمَكّننا من رؤية البقع القريبة ويحثّنا على النظر.

قد يسعفنا التاريخ بإطلاعنا على أن الناس الآخرين الذين يعيشون الحالة عينها كانوا في أوقات أخرى لا يحسّون كيف يعيش جيرانهم في المدينة عينها. افترض أننا ـ في خِضَمّ «رفاهية» الخمسينات ـ قرأنا عن العشرينات، كونها حقبة أخرى من الغنى.

وبالنظر عن كثب، يمكننا العثور على تقرير ممثل مونتانا (Montana) السيناتور بيرتن ويلر (Burton Wheeler) الذي يُحقِّق في أوضاع بنسلفانيا (Pennsylvania) خلال إضراب عمال مناجم الفحم عام 1928[3]:

استمعتُ طوال اليوم لقصص فاجعة لنسوة طردتهنّ شركات مناجم الفحم من منازلهن، وسمعتُ توسّلات مثيرة للشفقة لأولاد صغار يبكون طلباً للخبز. وقفتُ مشدوهاً أثناء سماعي لمعظم القصص المُذهلة من رجالٍ تم ضربهم بوحشية من قِبَل رجال الشرطة الخاصة. لقد كانت تجربة صاعقة ومُرهقة للأعصاب.

ألا يوحي لنا هذا الأمر أنه قد يتمّ في عصرنا هذا أيضاً إسدال الستار على حياة العديد من الأميركيين وأن أصوات الرفاهية يمكن أن تكتم مجمل الأصوات الأخرى، وتُهيمن أصوات الأثرياء على التاريخ؟

وكما هو الحال في الماضي، نبني «التاريخ» في عصرنا هذا على أساس الروايات التي خلّفها أكثر عناصر المجتمع فصاحةً وامتيازاً؛ فالنتيجة صورة مشوّهة عن معيشة الناس وتقليل من شأن الفقر والفشل في تقديم صورة حيّة لأوضاع أولئك الذين يعانون من العوز. إذا كان باستطاعتنا في الماضي أن نجد صوتاً يُمَثِّل الضحايا، فقد يقودنا هذا الأمر إلى البحث عن المناشدات الضائعة لحقبتنا هذه. يمكننا تحقيق هذا الأمر مؤقتاً ودون العودة إلى الماضي. لكنّ كشف النقاب عما هو محجوب في الماضي يدفعنا ـ خصوصاً عندما لا يكون هنالك باعث مباشر ـ إلى النظر بشكل ثاقب في المجتمع المعاصر. (من تجربتي الذاتية، جعلتني قراءة الرسائل من فقراء شرق هارلم (Harlem) في العشرينات الموجودة بين أوراق فيوريللّو لاغارديا (Fiorello LaGuardia) أُدقِّق في الأوقات السعيدة ظاهرياً في الخمسينات).

هل صورة المجتمع التي يُقدّمها ضحاياه حقيقية؟ ليس هنالك صورة حقيقية واحدة لأية حالة تاريخية، ولا حتى وصف موضوعيّ واحد. قادنا البحث عن موضوعية غائبة، وبشكل ساخر، إلى ذاتية متردّية بشكل بارز ـ أي ذاتية المتفرّجين. فللمجتمع مصالح متضاربة ومتنوّعة، وأنّ ما يُدعى بالموضوعية هو قناع لإحدى هذه المصالح ـ أي مصلحة الحياد. لكنّ الحياد مجرّد خيال في عالم غير حيادي. فهنالك ضحايا وجلاّدون، وهنالك متفرّجون. ففي ديناميكية عصرنا هذا وعندما تتدحرج الرؤوس إلى داخل السلة كلّ ساعة، يختلف معنى ما هو «حقيقي» وفقاً لما يحدث لرأسك بالذات، وبينما تترنح رؤوس أخرى تدعو «موضوعية» المتفرج إلى السلبية. في مؤلف «الطاعون، The Plague»، لكاموس (Camus)، يقول الطبيب ريو (Rieux): «إنّ كلّ ما أُريد تأكيده هو أن هنالك أوبئة وضحايا على هذه الأرض والأمر متروك لنا قدر الإمكان كي لا نتحالف مع الأوبئة». فالإحجام عن العمل يعني التحالف مع الطاعون المنتشر.

ما هي «الحقيقة» عن وضع الإنسان الأسود في الولايات المتحدة عام 1968 ؟ يشير بعض الإحصاءات إلى تحسّن وضعه، وتشير إحصاءات أخرى أن حالته سيئة كما كانت دوماً. كلا المجموعتين من الإحصاءات «حقيقيتان»(*). لكن تؤدي المجموعة الأولى إلى قناعة بالمعدّل الحالي للتغيير، وتؤدي الثانية إلى رغبة في تسريع معدل التغيير. فكلما اقتربنا من تلك «الموضوعية» المحيّرة يعني أن علينا وصف جميع حيثيات حالةٍ ما بدقة. لكننا نُركّز على واحد أو آخر من تلك الآراء الذاتية في أية حالة. أقترحُ الابتعاد عن وضعنا الاعتياديّ كمراقبين ذوي امتياز. فإن لم نتحرّر مما نحب تسميته «موضوعي»، نحن أقرب نفسياً إلى الجلاّد منه إلى الضحية، سواء شئنا التسليم بهذا أم لا.

لا داعي لإخفاء الحيثيات التي تُبيّن صعود الزنوج إلى السُلّم الاجتماعي الأميركي التقليديّ بوتيرةٍ أسرع من قبل، حيث أصبح السُلّم أكثر ازدحاماً مما كان عليه. لكن هنالك حاجة ـ ناجمة عن التصميم على تمثيل أولئك الذين لا يزالون يفتقرون إلى ضروريات البقاء (أي الطعام والمأوى والكرامة والحرية) ـ للتركيز على حياة أولئك الذين لا يستطيعون حتى الاقتراب من السُلّم. ففي معنىً مجرّدٍ ما، إن أحدث تقرير لمكتب الإحصاء «حقيقيّ»، تماماً مثلما تقارير مالكم إكس وإيلدردج كليفر (Eldridge Cleaver) عن حياتهما. لكن دون إخفاءٍ للأمور السابقة، سيُركّز المؤرخ الراديكاليّ (على أية حال، هنالك مصالح عديدة فعالة تعلمنا بذلك) على تلك الحقائق التي قد نتجاهلها، وهذه الحقائق هي الحقائق كما تراها الضحايا.

من هنا تكمن الأهمية الخاصة لتاريخ العبودية المقتبس عن روايات العبيد الهاربين. على أية حال، لا يمكن لتاريخ العبودية احتكار الكتابة التاريخية لأن الأحداث التاريخية التي في متناولنا تُمَثّل وجهة نظر النخّاس (خذ على سبيل المثال، وصف أُلريك فيليب (Ulrich Phillip) المستند إلى مذكرات المَزَارِع) أو وجهة نظر المراقب الهادىء (أي المؤرخ الليبرالي المنتقد للعبودية لكن دون الحماس المناسب للحثّ على العمل). يُكَمّل التاريخ ذو الوجهة العبودية هذا الوصف بطريقة توقظنا من سباتنا.

ويصحّ الأمر عينه عند سرد قصة الثورة الأميركية من وجهة نظر البحار لا التاجر(4)، وعند سرد قصة الثورة المكسيكية من وجهة نظر المكسيكيين. فالفكرة تعني عدم إلغاء وجهة نظر أصحاب الامتيازات (بأية حال، يهيمن هذا الأمر على موضوع البحث) بل تذكيرنا عنوةً أن هنالك دوماً نزعة ـ حاضراً وماضياً ـ إلى رؤية التاريخ من القمة. إن تاريخ حرب الأفيون كما يراها الصينيون قد يوحي للأميركيين

(*) أنظر: فيفيان هندرسن (Vivian Henderson): «الوضع الاقتصادي للزنوج، The Economic Status of Negroes». عن دار نشر South regional council عام 1963. تُبيّن جملة وحيدة في «تقرير اللجنة الاستشارية الوطنية للاضطرابات المدنية»، Report of the National Advisory Commission on Civil Disorder»، عن دار نشر بانتام (Bantam) عام 1968، ص 13، مدى التعقيد: «بالرغم من أن هنالك ازدياداً في الدخل الوطني للزنوج وانخفاضاً في عدد الزنوج تحت «مستوى الفقر»، يبقى وضع الزنوج في المدينة المركزية مُتأزّماً.

بأنه يمكن النظر إلى الحرب الفييتنامية من وجهة النظر الفييتنامية أيضاً(*).

2 . يمكننا فضح ادعاءات الحكومات إما بالحياد أو عمل الخير

إذا كان الهدف من الشرط الأول لتنشيط الناس صقل وعيهم لمعرفة الغلط، فالشرط الثاني يقضي بتخليصهم من ثقتهم بأنه يمكن الاعتماد على الحكومات لتقويم الغلط.

مرة ثانية، إنني أنطلق من المقدمة المنطقية بأننا محاطون من كل حدب وصوب بأغلاط فظيعة، فهي كثيرة جداً لدرجة أنه يجب ألاّ نكون راضين عن أنفسنا وإن لم يتعرّض الجميع للظلم. لم تكن حكومات العالم راغبة في تغيير الأمور كثيراً، بل كانوا غالباً مُقترفي هذه الأغلاط. إن ترسيخ هذه الفكرة في نفوسنا يحثّنا على التصرف شخصياً.

هل يعني هذا أنني لست «موضوعياً» حيال دور الحكومات؟ دعونا نُلقي نظرة على الدور التاريخي للولايات المتحدة في المسألة العرقية. على سبيل المثال، ماذا قدّمت الحكومات الأميركية إلى الشخص الأسود في أميركا عَقِب الحرب الأهلية تماماً؟ فلنكن «موضوعيين» بمعنى الإفصاح عن جميع الحقائق التي تُجيب على هذا السؤال. لذلك، علينا الأخذ بعين الاعتبار التعديلات الثالثة عشرة والرابعة عشرة والخامسة عشرة، ومكتب فريدمن (Freedman)، وتمركز الجند في الجنوب، وإقرار الحقوق المدنية أعوام 1866 و1870 و1871 و1875. لكن علينا أيضاً تدوين قرارات المحكمة التي قلّلت من شأن التعديل الرابع عشر، وخداع الزنوج في اتفاقية Hayes Tilden عام 1877، وعدم تطبيق قرارات الحقوق المدنية. بالمحصّلة، حتى لو أفصحنا عن كل الأمور، سيكون تركيزنا في نهاية المطاف على: من نحن؟ وماذا نريد؟ فيوحي القلق الراهن بحاجة المواطنين إلى التصرف شخصياً أن علينا التركيز على عدم جدوى الثقة بالحكومة في ضمان حقوق عادلة للسود.

هنالك سؤال آخر: إلى أيّ مدى يمكننا الاعتماد على الحكومة في توزيع ثروات البلد بعدلٍ؟ يمكننا أخذ القوانين التي تمّ إقرارها في هذا القرن بعين الاعتبار، والتي بدت موجّهة إلى العدالة الاقتصادية ـ أي قوانين تنظيم الخط الحديدي للحقبة التقدمية، وإحداث ضريبة الدخل المتدرّجة في إدارة ويلسن (Wilson)، والدعاوى ضد الاحتكارات التي بدأت في إدارتَي ثيودور روزفلت (Theodore Roosevelt) وتافت (Taft). لكن سيوحي اعتراف راهن بحقيقة عدم تغيّر تحصيص الثروة لخمس السكان في هذا القرن بأن كل ما قام به القانون هو مجرد المحافظة على الوضع الراهن. ولتغيير هذا الأمر،

(*) أنظر: رسالة المفوّض لين (Lin) إلى الملكة فيكتوريا (Queen Victoria) في Teng, Ssu-yu, and Fairbank, John K., **China's Response to the West**, Harvard University, 1954, p. 24.

نحتاج إلى التأكيد على الأمر الذي لم نركّز عليه بعد، ألا وهو فشل الحكومة الدائم في تغيير الجور المستمر للنظام الاقتصادي الأميركي.

تُوضِّح هذه المشكلة تقويمات المؤرخين للبرنامج الحكومي الجديد. قد نكون «موضوعيين» جميعاً بتضمين أيّ وصف للبرنامج الحكومي الجديد كلاً من غناه بالتشريع الإصلاحي وعيوبه في استئصال الفقر والبطالة في أميركا. إنما هنالك تركيز، دقيقاً كان أم جسيماً، نستعين به دوماً للتأثير على هذه الحالة. يصقل نوع من التركيز على الشعور بالرضى كيفية تعامل أميركا مع الأزمة الاقتصادية، ويحثّنا نوع آخر من التركيز على بذل المزيد شخصياً، وذلك في ضوء الفشل الماضي في التعامل مع اللاعقلانية الأساسية التي تمّ فيها توزيع مصادر أُمتنا. توحي متطلبات الحاضر بتفضيل النوع الثاني من الطرح التاريخيّ(*).

لهذا، يستحق وضع الإصلاحات الليبرالية المتبجّحة لإدارة ويلسن في مكانها المناسب. على سبيل المثال، استدعى ويلسن الجيش الفيدرالي في حالة مثل مجزرة Ludlow عام 1914، ليس عندما أطلق عناصر Baldwin-Felts النار على عمال المناجم المُضربين في كولورادو (Colorado) أو عندما أحرق الحرس الوطني بيوتهم، لكن عندما أخذوا بالتسلّح والانتقام على نطاق واسع. لنستعرض حالة أخرى. من المفيد معرفة أنه تمّ اقتراح تدابير الضمان الاجتماعي عام 1935 بشكل تجاوز أولئك الذين دعمتهم الجمهورية الديمقراطية الفيدرالية (FDR)، لكن حثّ ويلسن على الاقتراحات الأكثر اعتدالاً. وفي ضوء إدراكنا المتأخّر بأن دفعات الضمان الاجتماعي ـ حاضراً وماضياً ـ لا تفي بالغرض على نحو مثير للشفقة، إن الطريقة التي نرى فيها برنامج الضمان الاجتماعي التابع للجمهورية الديمقراطية الفيدرالية قد يُعزّز أو قد لا يُعزّز تصميمنا على تغيير الأمور.

إذن، سيفضح التاريخ الراديكاليّ محدوديات الإصلاح الحكومي وارتباطات الحكومة بالثروة والامتياز ونزعات الحكومات للحرب ولكراهية الأجانب ولعبثيّ المال والسلطة وراء الحياد الظاهريّ للقانون. سيبيّن هذا التاريخ دور الحكومة في إبقاء الأمور على

(*) ينبغي ألاّ يُخلَط هذا الامر مع «البحث عن المسؤولية»، على حدّ تعبير جيرالد إس أورباخ، .Jerald S) (Auerbach الذي انتقد النقّاد اليساريين الجدد المُنتمين إلى البرنامج الحكومي الجديد؛ فالفكرة لا تكمن في استنكار البرنامج الجديد للجمهورية الديمقراطية الفيدرالية (FDR) ولا في مديحه، فهذا النوع من التقييم التاريخي عقيم وذلك كما أُوحي في نقاشي لقضية المسؤولية في الباب السابع عشر من هذا الكتاب. فأورباخ في «البرنامج الحكومي الجديد والبرنامج الحكومي القديم، أو البرنامج الحكومي الظالم: بعض الأفكار حول الكتابة التاريخية اليسارية الجديدة، «Some Thoughts on New Left Historiography»، في **Journal of Southern History**, February, 1969. يُخطىء في استيعاب نيّة أولئك (من أمثالي في **New Deal Thought**، عن دار نشر Bobbs-Merrill عام 1966 أو من أمثال بول كونكن (Paul Conkin) في **The New Deal**، عن دار نشر Thomas Crowell عام 1967 الذين يركّزون على عيوب إصلاحات روزفلت. ليس الغرض من هدفنا النيل من السياسة الماضية، بل تحريض المواطنين الحاليين.

ما هي عليه سواء بالقوة أم بالخداع، أو عن طريق مزيج بارع لكليهما ـ أي سواء عن طريق خطة مقصودة أم بوساطة ارتباط آلاف الأفراد الذين يلعبون أدواراً وفقاً للآمال المعقودة عليهم.

فحقائق مُثيرة من هذا النوع متوفّرة بوفرة الحيثيات المتعلقة بالحكومات الحالية. يتجلّى ما يمكن أن تقوم به المادة التاريخية في إضافة العمق الذي يمنحه الزمن لفكرةٍ ما. فقد يُعزى ما يراه المرء في الزمن الراهن إلى ظاهرة عابرة، وفي حال ظهرت الحالة عينها في مواضع مختلفة من التاريخ لا تصبح حدثاً انتقالياً، بل شرطاً طويل الأمد، وليست شذوذاً بل عاهة بنيوية تتطلّب اهتماماً جدّياً.

مثلاً، قد نرى بوضوح أكبر محدوديات لجان التحقيق الحكومية المُحدَثة لمعالجة المشاكل الاجتماعية المتأصّلة في حال عرفنا لجاناً من هذا النوع. خذ شهادة كينيث كلارك (Kenneth Clark) الفظّة أمام اللجنة الاستشارية الوطنية للاضطرابات المدنية التي تمّ إحداثها عقب أحداث العنف المدنية عام 1967. وبإشارة إلى تحقيق مماثل تمّ إجراؤه عقب أحداث الشغب في شيكاغو (Chicago) عام 1919، قال كينيث[5]:

اطلعتُ على ذلك التقرير... أحداث الشغب في شيكاغو عام 1919 وكانني أطّلع على تقرير لجنة التحقيق بخصوص أحداث الشغب في هارلم عام 134، وعلى تقرير لجنة McCone بخصوص أحداث الشغب في Watts. مرة ثانية، عليّ أن أقول لكم بصراحة يا أعضاء هذه اللجنة ـ إن هذا الأمر شبيه بآليس (Alice) في أرض العجائب مع إعادة الصور المؤثّرة عينها مراراً وتكراراً ـ أي التحليل عينه والتوصيات عينها والسلبية عينها.

3 . يمكننا فضح الإيديولوجية التي تجتاح ثقافتنا. نستخدم كلمة «إيديولوجية» من وجهة نظر مانهايم (Mannheim) ـ أي تبرير للنظام القائم

فهنالك تبرير مفتوح للعنصرية وللحرب وللظلم الاقتصادي، وهنالك أيضاً سلسلة من أنصاف الحقائق مؤيّدة ومراوغة («نحن لا نشبه القوى الإمبريالية في القرن التاسع عشر») وأساطير سامية («وُلدنا أحراراً») وادعاءات («التعليم سعيٌ نزيه للمعرفة») وإبهام التبجّح («الحياة والعدالة للجميع») والخلط بين المُثُل العليا والحقيقة (إعلان الاستقلال ودعوته إلى الثورة في عُرفنا الكلاميّ، وقانون سميث (Smith) ومنعه الدعوات إلى الثورة في كُتبنا القانونية) واستخدام الرموز لطمس الحقيقة («تذكّر ولاية Maine»، إزاء لحم فاسد للجند) وبراءة النفاق (استهجان عنف جون براون (John Brown) وترحيب بعنف يوليسيز غرانت (Ulysses Grant) وإخفاء التعابير الساخرة (استخدام التعديل الرابع عشر لمؤازرة الشركات بدلاً من الزنوج).

وبقدر ما يزداد انتشار التعليم في مجتمع ما، بقدر ما يتطلّب هذا الأمر إبهاماً

متزايداً لإخفاء الغلط. لقد تضافرت جهود الكنيسة والمدرسة والكلمة المكتوبة من أجل ذلك الإخفاء، وهذا الأمر ليس نتاج مؤامرة ما. إن أصحاب الامتيازات في المجتمع ضحايا الأسطورة القائمة، تماماً كالمعلمين والقساوسة والصحافيين الذين روّجوها. ببساطة، إن كل ما يقومون به يحدث بشكل طبيعي، وما يحدث بشكل طبيعي يعني أن تقول ما تمّ قوله دوماً وأن تؤمن بما تم الإيمان به دوماً.

للتاريخ قدرة خاصة على كشف سُخف تلك المعتقدات التي تربطنا جميعاً بإطار آبائنا الاجتماعيّ. قد يعزّز التاريخ ذلك الإطار بسلطة شديدة، وقد قام بذلك أكثر الأحيان. تكمن مشكلتنا في تحويل سلطة التاريخ ـ والتي هي أشبه بسلاح ذي حدّين ـ إلى وظيفة فكّ الإبهام. أتذكّر هنا كلمات عالم الاجتماع المعادي للمفاهيم التقليدية فرانكلين .E فريزر (Franklin E. Frazier) الموجّهة إلى طلاب الجامعة السود في إحدى الأمسيات في آتلانتا (Atlanta) ـ جورجيا (Georgia): «لقد خدعكم البيض والواعظون والمعلمون طوال حياتكم، وأنا هنا لأُزيل الغشاوة عن أعينكم».

قد يساعدنا تذكّر تبجّح الماضي ومقارنته بالماضي الحقيقيّ على فهم خداعنا الحاليّ، حيث لا تزال الحقيقة في طور تكشّفها ولا تزال المفارقات غامضة. بالاطّلاع على المناشدة النبيلة لآلبرت بيفردج (Albert Beveridge) في مجلس الشيوخ في التاسع من كانون الثاني عام 1900، الذي يحثّ فيه الاستيلاء على الفليبين (Philippines) بقوله: «حمداً للّه العليّ القدير الذي خصّنا بأننا شعبه المختار، وبأننا من الآن فصاعداً سنكون الروّاد في تجديد العالم»، ومن ثمّ اطّلاعنا على ذبحنا المتمردين الفيليبينيين الذين أرادوا الاستقلال، وكلّ هذا يعني تهييئنا بشكل أفضل للخطابات المتعلقة «بمسؤوليتنا العالمية» اليوم. قد يجعلنا ذلك التذكّر نشكّ بمحاولة آرثر شليزنغر (Arthur Schlesinger) في وضع «إطار تاريخيّ» لحرب فييتنام مؤلّف من «تيارين تقليديين، لكن محترمَين تماماً في التفكير الأميركي»؛ إذ يُعنى أحدهما «بمفهوم مفاده أن للولايات المتحدة مهمة إنقاذية في العالم»[6]. وفي ضوء تاريخ الفكر والحقيقة في التوسّع الأميركي، لا يُعتبر ذلك التيار محترماً تماماً. فعلى حدّ تعبير شليزنغر، لم تكن مأساة فييتنام «سوء تنفيذ مأساوي أخير» لتلك التيارات وانحرافاً عن تقليد تاريخيّ عطوف، بل لفّة أخرى للحبال المميتة حول شعب أجنبيّ ناقم.

لنتناول مثالاً آخر يكون فيه تاريخ الفكر موحياً بالحاضر. يمكننا أن نوضّح لأنفسنا السؤال المحيّر حيال كيفية تعليل التوسّع الأميركي إلى المحيط الهادي في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، حيث إن المصالح المادية الحقيقية هناك لا تُسوّغ اهتماماً من هذا القبيل. تُشير مارلين بـ يَنغ (Marilyn B. Young) في دراستها لفترة الانفتاح إلى أن السر وراء كوننا «قوة عالمية» دفع بالولايات المتحدة إلى القيام بأعمال عنيفة بالرغم من «افتقار المصلحة المالية والتجارية». لذلك «انتقل الانفتاح إلى داخل الجسد الصغير للمبدأ الأميركي المقدّس، وتمّ الافتراض «بالمصلحة الأساسية» لأميركا

في الصين ولم يتمّ التخلي عنه أبداً»[7]. فيوثّق كتابها تركيبة هذا المفهوم «للمصلحة الأساسية» بطريقة تجعلنا ننفر بشكل قاطع من قبول مزاعم القادة الأميركيين المدافعين اليوم عن الغزوات لبلدان آسيوية.

بالنسبة للأميركيين المنغمسين الآن في تمجيد الدقة والنجاح وبدون أي تفكير بالغايات، يمكنهم التحرّر من ذلك بالاطّلاع في الوقت عينه على **All Quiet on the Western Front** (من أجل الحقيقة المقزّزة للحرب العالمية الأولى) وعلى تعليقات راندولف بورن (Randolph Bourn) حول المفكرين الأميركيين عام 1917[8]:

باختصار، ليس لديهم فلسفة واضحة للحياة سوى فلسفة جهاز المخابرات والتوفيق المثير للإعجاب بين الوسائل والغايات. فهم غامضون حيال المجتمع الذي ينشدونه أو نوع المجتمع الذي تنشده أميركا، لكنهم مزوّدون بالمواهب والمواقف الإدارية المطلوبة لتحقيقه... يبدو جلياً أنه ما لم تبدأ بالخيال الشعري الأكثر وضوحاً، فمن المحتمل أن تقودك طرائقيتك إلى حيث قادت المفكرين الشباب الذين انهمكوا بسعادة في المشروع الوطني للحرب.

4 . يمكننا استرداد تلك اللحظات القليلة في الماضي التي تُبيِّن إمكان وجود طريقة أفضل للحياة من تلك التي هيمنت على الأرض حتى الآن

إن حثّ الناس على تحقيق ذلك ليس كافياً لتعزيز إحساسهم بالغلط ولإظهار أن الناس على رأس السلطة غير جديرين بالثقة ولكشف أن طريقتنا الذاتية في التفكير محدودة ومشوَّهة وفاسدة. على المرء أيضاً إظهار إمكان حدوث شيء آخر، وأنه يمكن القيام ببعض التغيّرات، وإلاّ تراجع الناس إلى العزلة والشك واليأس، أو حتى التعاون مع الأقوياء.

لا يستطيع التاريخ تقديم إثبات على حتمية وجود شيء أفضل، لكن يمكنه كشف النقاب عن دليل ممكن تصوره. قد يشير التاريخ إلى لحظات تعاضدت فيها الكائنات البشرية مع بعضها البعض (إنشاء السود والبيض لسكة حديد الأنفاق، والمقاومة الفرنسية لهتلر، وإنجازات عصر الفوضى في كاتالونيا (Catalonia) أثناء الحرب الأهلية الإسبانية). يمكن للتاريخ رصد الفترات التي كانت فيها الحكومات قادرة على إبداء اهتمام حقيقي بعض الشيء (تشكيل حكومة وادي تنيسي (Tennessee) والرعاية الصحية المجانية ومبدأ المساواة في الأجور عند لجنة باريس الثورية. يمكنه كشف الناس الذين يعتبرون أنفسهم أبطالاً وليس على أنهم مجرمون أو حمقى (قصة Thoreau) أو ويندل فيليبس (Wendell Phillips) أو يوجين ديبز (Eugene Debs) أو مارتن لوثر كينغ (Martin Luther King) أو روزا لكسمبيرغ (Rosa Luxemburg). يمكنه تذكيرنا بأن الجماعات المستضعفة قد كسبت وعلى عكس جميع التوقّعات

(الإيطاليون لمبدأ الاسترقاق والتعديل الثالث عشر، والاعتصامات، وأنصار الحركة الشيوعية الفييتنامية، والجزائريون المناهضون للفرنسيين).

للدليل التاريخي وظائف معينة، حيث يُضفي أهمية وعمقاً على الدليل الذي سيبدو ضعيفاً في حال تمّ استئصاله من الحياة المعاصرة. قد يُظهر الدليل التاريخي إمكان التغيير وذلك بوصف تحركات الناس عبر العصور. وإن كان التغيير الحقيقي طفيفاً إلى حد تركنا يائسين في الوقت الراهن، فنحن بحاجة إلى الإيمان بإمكان التغيير وذلك لحثّنا على العمل. وهكذا عندما نأخذ بعين الاعتبار ما يجب بذله من جهود، من المهم مقارنة وعي الأميركيين البيض حيال السود في الثلاثينات والستينات لإدراك أنه قد تغيّر فترة من الصراع الخلاّق عقول وسلوك الناس. من المهم أيضاً عند الأخذ بعين الاعتبار الجهود التي يمكن بذلها في الصين إدراك السرعة الهائلة التي استطاع فيها الشيوعيون الصينيون تعبئة سبعمائة مليون مواطن لمكافحة المجاعة والمرض. ونحن بحاجة إلى أن نعرف ـ أمام القوة المرعبة وراء الصيحات الاتهامية لنا نحن المتمرّدين، أننا لسنا مجانين وأن الناس الذين نعرف عظمتهم من وجهة النظر الزمنية شعروا كما نشعر. علينا في اللحظات التي يتمّ فيها استدراجنا للموافقة على إدانة الثورة أن نُنبِّه أنفسنا بالاستعانة بتوماس جيفرسن (Thomas Jefferson) وتوم بين (Tom Paine)، وفي الأوقات التي نوشك فيها على الاستسلام لتمجيد القانون، يمكننا الاستعانة بثورو (Thoreau) وتولستوي (Tolstoi) لإحياء قناعتنا بحلول العدالة محلّ القانون.

لهذا السبب، يُعتبر كتاب ستوتن ليند (Staughton Lynd) (**الأصول الفكرية للراديكالية الأميركية، Intellectual Origins of American Radicalism**) حدثاً تاريخياً مفيداً يعود بالذاكرة إلى تقليد أميركي ـ إنكليزي في القرن الثامن عشر ويؤكّد[9]:

... أنّ الأساس الصحيح للحكومة يكمن في قانون عالميّ للصواب والخطأ البديهيين للحسّ العام الحدسيّ لكلّ إنسان، والحرية قوة توجيه الذات الشخصية التي لا يمكن لإنسان أن يوكلها إلى إنسان آخر، والغرض من المجتمع ليس حماية الملكية بل تحقيق متطلبات الكائنات البشرية الحية، وللمواطنين الصالحين الحق والواجب ليس في قلب أنظمة الحكم التعسفية المزمنة فحسب، بل في خرق القوانين التعسفية الخاصة قبل الوصول إلى تلك المرحلة، وأننا مدينون بولائنا النهائيّ ليس لهذه الأمة أو تلك، بل للأسرة الإنسانية برمتها.

عندما يلفّ الغموض ذلك التقليد عن طريق طريق صيحات من كل الأطراف مُطالبة «بالقانون» و «النظام» و «الوطنية» (تورية حول الالتباس بين اهتمام المرء بالحكومة وبين اهتمامه بزملائه)، نحتاج إلى تذكير أنفسنا بعمق الدافع الإنساني الثوري، حيث ينقل الامتداد عبر القرون ذلك العمق.

وبالمعايير التي كنت أُناقشها، إنّ تذكُّر ذلك التقليد يُمثّل التاريخ الراديكالي. يجدر

النظر، إذن، في سبب الانتقاد اللاذع لكتاب لينـد من قبل راديكاليّ آخر يُدعى يوجين جينوفيز (Eugene Genovese)، وهو مؤرخ مهتمّ بالرّق الأميركي[10].

جينوفيز منزعج لأن **الأصول الفكرية للراديكالية الأميركية** «مُعدّة بصراحة لخدمة غايات سياسية». لو أنه كان ينتقد فقط «الافتراض بأن خلق الأسطورة وتحريف الكتابة التاريخية يمكن أن يكونا لهدف سياسي» (مثلاً، التاريخ الذي كتبه ما يُدعون بالماركسيين على الطريقة الستالينية)، لكان مُحِقاً. لكن يبدو أن جينوفيز يعني شيئاً آخر لأن لينـد كان بالتأكيد يُطلعنا على الحقيقة الصريحة حول أفكار أولئك المفكرين الأميركيين ـ الإنكليز الأوائل، فيقول بأنه لا ينبغي على عمل تاريخي ما التعامل مع الماضي بلغة «المعايير الأخلاقية المجرّدة عن أي زمان ومكان».

بشكل خاص، لا يُحبّذ جينوفيز الطريقة التي يستخدم فيها لينـد الأفكار المتعلقة بإعلان الاستقلال على أنها نوع من «الاستبدادية الأخلاقية» التي تتجاوز الزمن وتربط مُتطرفي القرن الثامن عشر بمُتطرفي القرن العشرين، بينما تُخفق في دراسة «دور الطبقة الاجتماعية والوضع التاريخي للمناقشات بين الراديكاليين». فهو ينتقد حقيقة أن «لينـد لم يُناقش أبداً علاقة هذه الأفكار بالجماعات الاجتماعية التي تتبناها»، ويزعم أن «لينـد ينكر الوضع الاجتماعي الذي تحدث فيه الأفكار»، مفضلاً بذلك رؤية الحقائق الأخلاقية العظيمة على أنها «بديهية ومطلقة». يعني هذا الأمر بالنسبة لجينوفيز أن لينـد «ينكر بذلك فائدة التاريخ إلاّ لأغراض العِظَة الأخلاقية». ثمّ يردف قائلاً إن لينـد يتخلّى عن «الطبقة العاملة والحركات الاشتراكية» و «النزعات المُضادّة والآراء المعارِضة للحزب اليساري»، مما يجعل الكتاب إهانة للتاريخ».

إنه لنقد هام وحاد، لكن أعتقد أن جينوفيز مخطىء ليس في وصفه لما يقوم به لينـد فحسب، بل في تقديره لقيمته. إن مناشدته لعدم دراسة الماضي بالمعايير الأخلاقية «المجرّدة عن الزمان والمكان» مغرية وذلك لارتباطنا (خصوصاً، نحو المؤرخين المحترفين) بمرساة الخاصية التاريخية ولا نُريد معيار محاكمة عقلية طوباوية واثيرية. لكن لا يعني التجرّد عن الزمان والمكان الابتعاد عن الزمان والمكان كلياً، بل بالأحرى الإزالة النسبية للتفصيل التاريخي بحيث يمكن إيجاد قاسم مشترك بين فترتين تاريخيتين أو أكثر ـ أو بشكل خاص، بين حقبة أخرى وحقبتنا. (فعلاً، يعني هذا الأمر فقط المتابعة الإضافية لما ينبغي القيام به بدافع الضرورة، حتى عند دراستنا للمعيار الأخلاقي لأيّ زمان ومكان أو للرأي المتعلق بأية حركة اجتماعية لأننا جميعاً فريدون على المستوى المادي). إن دراسة الماضي في ضوء ما يدعوه جينوفيز «الاستبدادية الأخلاقية» تعني فعلاً دراسة الماضي المرتبط بالمُثُل التي تُسيِّرنا في الحاضر، ولأنها رحبة الأفق سيَّرت أناساً آخرين في عهود أخرى من التاريخ.

إن إغراء «الزمان والمكان» يعني إغراء المؤرخ المحترف المهتم «بحقبتي» و «موضوعي». يمكن لخاصيَّتَي الزمان والمكان هاتين أن تكونا مفيدتين للغاية، وهذا

يتوقف على السؤال المطروح. لكن في حال كون السؤال المطروح (بالنسبة لِليند) على النحو التالي: ما السَنَد الذي يمكن أن نجده في الماضي لقِيَم تبدو جديرة في الوقت الراهن؟ فكثير من الأدلة الظرفية غير مناسب. فقط في حال لم يكن مجال البحث قضية راهنة، تُصبح جميع التفاصيل الخاصة والتفاصيل الغنية والمعقّدة واللامتناهية لفترة ما هامّة دون أيّ تمييز، وذلك ـ سأُناقش ـ نوع من التاريخ أكثر تجريداً لأنه يتجرّد عن اهتمام راهن محدّد، وهذا بدوره ـ سأَزعم ـ استسلام لاستبدادية الكتابة التاريخية المحترفة ـ أي أخبرونا بكلّ ما تستطيعون.

وكذلك الأمر عند لوك (Locke) وآخرين بأهمية المطالبة «بدورٍ للطبقة الاجتماعية» في معالجة الأفكار اليمينية ـ الطبيعية في حال كان السؤال المطروح على النحو التالي: كيف تتفاعل أفكار وخلفيات الطبقة الاجتماعية مع بعضها البعض؟ (وذلك لاستيعاب أفضل لنقاط ضعف كلّ من الفكرين الطوباويّ والإيديولوجيّ في الوقت الراهن). لكن بالنسبة للهدف المحدد عند ستوتن لِيند، يتطلب هذا الأمر تركيزاً آخر. عندما يُركِّز المرء على التاريخ بطرح أسئلة معيّنة، يتمّ إغفال الكثير من الأمور، لكن هذا صحيح حتى عندما يكون هناك افتقار للتركيز.

هنالك تشابه بين المذهب المحترف المُطالب «بالزمان والمكان» وبين مذهب عند المفكرين الماركسيين المُطالبين «بِدَور الطبقة الاجتماعية» وكأنه كان المحكّ بالنسبة للتاريخ الراديكاليّ. حتى لو أبدل المرء (كما كان جينوفيز متحفّزاً للقيام بذلك) الجبرية الاقتصادية «بتحليل طبيعيّ رفيع للتغيير التاريخي» وذلك بدراسة الطبقة الاجتماعية «كمزيج معقّد من المصالح المادية والإيديولوجيات والمواقف النفسية»، إن هذا الأمر قد يدفع أو لا يدفع الناس نحو التغيير في الوقت الراهن. وذلك ـ أي التأثير الكليّ للتاريخ على الوضع الاجتماعي الراهن ـ يُشكِّل المعيار للتاريخ الراديكالي الحقيقي، وليس معياراً طرائقياً مجرداً ومطلقاً قد يستحوذ على عقول الماركسيين والآخرين أيضاً.

على سبيل المثال، يُوافق جينوفيز أن إحدى الحقائق الأخلاقية العظيمة التي يناقشها لِيند ـ أي استخدام الضمير لمحاربة السلطة كاختبار نهائيّ للأخلاقية السياسية ـ كانت قوة ثورية في الماضي، لكنّ هذا الأمر بالنسبة لجينوفيز مجرّد حقيقة تاريخية عن فترة خاصة. فعندما «يسعى لِيند إلى زرع هذه الحقائق في الثورة الاشتراكية، لم يناقش مضمونها أبداً»، فهو يؤكّد أنها [أي الحقائق] تُشكِّل جوهر الفكر الاشتراكي الثوري بالرغم من أنه لم تظفر أية حركة اشتراكية بالسلطة بإيديولوجية من هذا القبيل...». فهذا بالضبط السبب وراء الإصرار على قيمة أخلاقية ما يشترك بها مفكرون معيّنون من القرن الثامن عشر (وعلى مستوى معيّن يشترك بها ماركس وإنغلز) مفادها أن الحركات الاشتراكية لم تُعِر حتى الآن اهتماماً كافياً لحقّ الضمير في محاربة جميع الدول. لكي تكون راديكالياً حقيقياً، عليك الحفاظ على مجموعة من

المعتقدات السامية (أجل، مُطلَقات) التي يمكن بوساطتها الحكم على وبالتالي تغيير أيّ نظام اجتماعي معيّن.

باختصار، بينما هنالك قيمة ما لتحليل محدّد متعلّق بحالات تاريخية معيّنة، هنالك نوع آخر من القيم لكشف النقاب عن المُثُل العليا التي تتخطّى الفترات التاريخية وتُقوّي المعتقدات التي تحتاج إلى ترسيخ في الوقت الراهن. تكمن المشكلة، إذن، في أن المؤرخين الماركسيين لم يُعيروا اهتماماً كافياً في كتابه «**طريحات**(*) **عن فيورباخ، Theses on Feuerbach**»: «إن الخلاف على واقعية أو عدم واقعية الفكر المنفصل عن الخبرة العملية مسألة مدرسية بحتة». لا يمكن إيجاد حلّ نظريّ لأيّ خلاف حول ماهية تاريخ «حقيقيّ» ما. المسألة الحقيقية إذن: أيّ حدث من الأحداث التاريخية «الحقيقية» العديدة والممكنة «حقيقياً» (على ذلك المستوى البدائي للحقيقة الواقعية) ليس بالنسبة لمفهوم مذهبي حيال ما يمكن أن يتضمنه تفسير تاريخيّ ما، بل بالنسبة للحاجات العملية من أجل التغيير الاجتماعي في يومنا هذا؟ إن لم تكن «الغايات السياسية» التي يُحذّر منها جينوفيز ويتبنّاها ليند تُمثّل المصالح الضيّقة لأمة أو حزب أو إيديولوجية، بل تلك القِيَم التي لم نُحقّقها بعد، فمن المرغوب فيه أن يقوم التاريخ بخدمة غايات سياسية.

5 . يمكننا إظهار أن حركات اجتماعية حقيقية يمكن أن تنحرف عن مسارها، وأن يخدع القادة أتباعهم، ويصبح المتمرّدون بيروقراطيين، وتصبح المُثُل العليا مجمّدة ومادية

إن هذا الأمر ضروري لتصحيح الإيمان الأعمى بأن الثوريين غالباً ما يطوّرون حركاتهم وقادتهم ونظرياتهم لدرجة أنه يمكن للعاملين المستقبليين من أجل التغيير الاجتماعي تفادي مطبّات الماضي؛ وبالاستعانة بالتمييز الذي يطرحه كارل مانهايم، فإن **الإيديولوجية** نزعة التحريف عند أصحاب السلطة، بينما تُمثّل **الطوباوية** نزعة التشويه عند أولئك البعيدين عن السلطة. فقد يُطلِعنا التاريخ على تجلّيات الإثنين.

ينبغي على التاريخ أن يُحذّرنا من نزعة الثوريين للاستبداد باتباعهم ومبادئهم المُعلَنة أيضاً. نحتاج إلى تذكير أنفسنا بفشل الثوريين الأميركيين في القضاء على العبودية، على الرغم من ادعاءات إعلان الاستقلال وفشل الجمهورية الجديدة في التعامل بإنصاف مع متمرّدي الويسكي في بنسلفانيا بالرغم من القيام بثورة ضدّ الضرائب المجحفة. وكذلك الأمر، نحن بحاجة إلى تذكّر أصوات احتجاج جاك رو (Jacques Roux) وفقراء غرافيل (Gravilles) ضد الثورة الفرنسية لحظة انتصارها وذلك بسبب

(*) الطريحة: المرحلة الأولى من مراحل الجدل الهيغلي.

الاستغلال، واحتجاج فارليه (Varlet) الذي يُعلن أن «الاستبداد انتقل من قصر الملك إلى دائرة لجنة»(*). يجب أن يطّلع الثوريون، دون التقليل من حماسهم للتغيير، على خطاب خروتشيف (Khrushchev) في المؤتمر العشرين للحزب عام 1965 ووصفه لفظائع جنون العظمة التي اقترفها ستالين.

ليس الغرض من هذه النقطة إبعادنا عن الحركات الاجتماعية بل جعلنا مشاركين ناقدين فيها، حيث تكشف لنا أنه من السهل على المتمرّدين الانحراف عن مزاعمهم الذاتية. بالرغم من تنوّرنا، قد يجعلنا هذا الأمر مدركين لنزعاتنا الذاتية في أن نكون آباءً للمظلومين وذلك للاطّلاع على خطاب المناهض للاسترقاق ثيودور إس رايت (Theodore S. Wright) في مؤتمر Utica لجمعية نيويورك المعادية للعبودية عام 1837. انتقد رايت «روح النخّاس» عند البيض المناهضين للاسترقاق. أو يمكننا الاطّلاع على ردّ هنري هايلاند غارنت (Henry Highland Garnet) عام 1843 على سيِّدة من البيض مناهضة للاسترقاق وبّخته لتَشدّده[11].

تقولين انني تلقّيت «مشورة سيئة»، فانتِ لستِ الإنسانة الوحيدة التي أخبرَت خادمها المطيع أن نتاجه المتواضع نَجَم عن «نصيحة» إنكليزيّ ما. لم أرجُ الكثير من النخّاسين الجهلة والمُدافعين عنهم، لكن تطلّعتُ فعلاً إلى أمور أفضل من السيِّدة ماريا .W تشابمان (Maria W. Chapman)، الشاعرة المعادية للعبودية والمحرِّرة بالوكالة لصحيفة Liberator في بوسطن...

قد يجعلنا تاريخ الحركات الراديكالية مُتيقّظين من العبادة العمياء للقادة والغطرسة النرجسية واستبدال المذهب بنظرة متأنية إلى البيئة وإغراء التسوية عندما يتودّد قادة حركة ما باستمرار إلى أصحاب السلطة. بالنسبة لأيّ شخص مبتهج لانتخاب الاشتراكيين لتولّي السلطة في دولة رأسمالية ما، إنّ إعادة روبرت مايكلز (Robert Michaels) لوصف تاريخ الحزب الديمقراطي الاشتراكي الألماني موضِّحة، حيث يبيّن مايكلز إمكان فساد السلطة البرلمانية بانفصال الراديكاليين المُنتَخبين لتولّي السلطة عن القاعدة في حركتهم ذاتها ويمنحهم مقاماً يجعل انتقاد تصرفاتهم أكثر صعوبة[12].

خلال المناقشات في الرايكشتاغ (Reichstag) بخصوص إضراب عمال المناجم في حوض الرور (Ruhr) عام 1905، تحدّث النائب هيو (Hue) عن البرنامج النهائي للحزب على أنه «طوباويّ»، ولم تظهر في الصحافة الاشتراكية أية إشارة إلى الثورة. ففي المناسبة الأولى التي يَحِيد فيها الحزب عن مبدئه في المعارضة التامة للإنفاق العسكري برمته، مُمنياً نفسه بالامتناع المطلق عندما تمّ التصويت على

(*) للاطّلاع على وثيقة تاريخية رائعة عن هذا الجانب من الثورة الفرنسية، أنظر:
Scott ed., **The Defense of Gracchus Babeuf Before the High Court of Vendome**, University of Massachusetts Press, 1967.

السلفة الأولى البالغة 1,500,000 مارك من أجل الحرب ضد الهيروروس (Hereros). لم يخلق هذا التجديد الملحوظ الذي دون شك قد يثير ضمن كلّ حزب اشتراكيّ آخر عاصفة من شريحة من الأعضاء، لم يخلق عند الاشتراكيين الألمان أكثر من بعض الاحتجاجات الخجولة والمتفرقة.

قد يُعيق البحث عن أحداث تاريخية للحركات الراديكالية نزعتنا في جعل تلك الأدوات ـ أي الحزب والقادة والبرنامج السياسي ـ مُطلَقات يجب أن تخضع للتدقيق باستمرار.

لاحَظ ماركس في افتتاحية المقطع الرائع من **The Eighteenth Brumaire of Louis Bonaparte** أن العُرف أثقل كاهل الثوريين أنفسهم لدرجة أنهم لا يستطيعون التحرر كليّاً من التفكير بطرق قديمة:

يصنع الناس تاريخهم الذاتيّ، لكنهم لا يصنعونه كما يحلو لهم. لا يصنعونه ضمن ظروف يختارونها بانفسهم، لكن ضمن ظروف موجودة ومُحدّدة ومنقولة من الماضي مباشرةً. إن وقع عادات كافة الأجيال الميتة مثل كابوس على دماغ الأحياء. وبمجرّد ما يبدون مُنهمكين بإشعال ثورة في انفسهم وفي الأشياء وفي خلق شيء جديد تماماً، يستحضرون أرواح الماضي في فترات الأزمة الثورية وذلك لخدمتهم ويستعيرون من الأرواح أسماءً، وملابس وشعارات المعارك لتقديم المشهد الجديد للتاريخ العالمي في هذا الخداع المُتَمتّع بقداسة القِدَم وهذه اللغة المُستعارة...

كيف يمكن استخدام الماضي لتغيير العالم دون أن نكون مرتهنين له؟ يمكن صقل كلتا المهارتين بغربلة حكيمة للخبرة الماضية، لكن لا ينجم التوازن الدقيق بينهما من المعطيات التاريخية وحدها، بل فقط من رؤية مُركّزة بوضوح للغايات الإنسانية التي يجب على التاريخ خدمتها.

ليس التاريخ بالضرورة نافعاً، فقد يُقيّدنا أو يُحرّرنا، وقد يقضي على الشفقة بنا بجعلنا نرى العالم من وجهة نظر المُرَفّهين («العبيد سعداء، فقط أنصت إليهم» ـ حيث يؤدي هذا الأمر إلى أن «الفقراء راضون، فقط أنظر إليهم»). وقد يشلّ التاريخ أي عزم على العمل عن طريق الكثير من الأمور التافهة، ويحوّلنا إلى العاب فكرية، ويركّز على «التفسيرات» الزائفة التي تحثّ على التأمل أكثر من العمل، ويحدّد رؤيتنا إلى قصة لامتناهية من الكوارث وبالتالي يُشجّع التقهقر التشاؤميّ، ويُحيّرنا بالاصطفائية الشاملة للكتاب الأنموذجيّ.

لكن، قد يُحرّر التاريخ عقولنا وأجسادنا وميلنا إلى الحركة ـ أي الانخراط في الحياة بدلاً من تأملها من موقع الغريب. يمكنه القيام بذلك بتوسيع أفقنا ليشمل أصوات الماضي الصامتة بحيث ننظر إلى ما يقبع وراء صمت الحاضر. قد يوضّح غباوة الاعتماد على الآخرين لحلّ مشاكل العالم ـ سواء الدولة والكنيسة أو المُحسنين الآخرين الذين نصّبوا أنفسهم بأنفسهم. وقد يكشف التاريخ عملية حشونا بالأفكار من

قِبَل قوى عصرنا هذا، وبالتالي دعوتنا إلى توسيع مداركنا لتجاوز المُسلّمات. كما يمكنه أن يُلهمنا بتذكّر تلك اللحظات القليلة في الماضي عندما تصرّف الناس بشكل إنسانيّ وذلك لإثبات إمكان هذا الأمر. وقد يصقل قدراتنا النقدية بشكل يجعلنا عندما نتصرّف نُفكّر بالمخاطر التي يخلقها يأسنا الذاتيّ.

إن هذه المعايير التي ناقشتها ليست جازمة، بل مجرّد دليل تقريبيّ. أفترض أن التاريخ ليس مدينة منظّمة (بالرغم من الرفوف المرتّبة في المكتبة) بل غابة. سأكون أحمق إن ادعيتُ أن رؤيتي مُنَزَّهة عن الخطأ. فالأمر الوحيد الذي لا أشك فيه هو أننا ـ نحن الذين نرمي بأنفسنا في الغابة ـ بحاجة إلى التفكير بما نقوم به لأن هنالك مكاناً ما نَودّ الذهاب إليه.

Notes

(1) Barbara Tuchman: **The Guns of August,** Macmillan, 1962, p. 72.

(2) Herbert Aptheker: **A Documentary History of the Negro People,** Citadel, 1951, p. 2.

(3) New York **Daily News,** February 6, 1928.

(4) Jesse Lemisch: «The American Revolution from the Bottom Up,» Barton Bernstein, ed., **Toward a New Past,** Pantheon, 1968.

(5) **Report of the National Advisory Commission on Civil Disorders,** Bantam, Bantam, 1968, p. 483.

(6) Richard Pfeffer, ed., **No More Vietnams,** Harper & Row, 1968, pp. 7, 8.

(7) Marilyn Young: **The Rhetoric of Empire,** Harvard University, 1968, p. 231.

(8) «Twilight of Idols,» **The Seven Arts,** October 1917, reprinted in Randolph S. Bourne, **War and the Intellectuals,** Harper (Torchbook edition), 1964, p. 60.

(9) Staughton Lynd: **Intellectual Origins of American Radicalism,** Pantheon, 1968, p. vi.

(10) **New York Review of Books,** September 26, 1968.

(11) Herbert Aptheker: **A Documentary History of the Negro People,** Citadel, 1951.

(12) Robert Michels: **Political Parties,** Free Press (Collier edition), 1962, p. 154.